

DW-WORLD.DE DEUTSCHE WELLE

ثقافة ومجتمع | 05.07.2009

من الدولة الوطنية إلى الولاءات المذهبية والعشائرية



تداول الباحث السياسي الألماني كارستن فيلاند والمفكر السوري صادق جلال العظم حول تسييس الدين والعرق في مناطق شتى في العالم، ملقنين الضوء على تجربة حركات التحرر العربية وفشلها في إقامة الدولة الوطنية.

يزداد الجدل حول دور العرق والدين واستغلالهما بشكل متزايد لتشكيل مجموعات سياسية تقوم بتغذية الصراعات بين هذه المنطقة أو تلك لتحقيق مآرب معينة. هذا التسييس الذي يخلق ويؤجج التوترات إلى حد اندلاع الحروب- كما حصل في منطقة البلقان في تسعينات القرن الماضي- كان موضوع حوار جرى بداية هذا الأسبوع في دمشق بين الدكتور كارستن فيلاند Carsten Wieland مؤلف كتاب "الدولة القومية خلافاً لإرادتها" الذي صدر بالعربية أيضاً والدكتور صادق جلال العظم، المفكر السوري المعروف وأستاذ الفلسفة المتقاعد في جامعة دمشق والناشط في مجال حقوق الإنسان.

"انهيار جدار برلين أحيى الأمل بمواطنة عالمية ذهبت قيد الأدرج"

من جانبه، يرى فيلاند أن الصراعات العرقية التي حدثت بعد سقوط جدار برلين عام 1989 تعود إلى التعصب لـ"الأصل". ففي يوغسلافيا السابقة، أضحت مسألة حياة أو موت أن تكون كاثوليكية أو أرثوذكسية أو مسلماً. ولعل المفارقة -حسب الخبير الألماني- أن سقوط الجدار أحيى الأمل لدى الكثير من الناس بعالم جديد سيولد مواطنة وقيماً عالمية تُجاري العولمة. لكن الذي حدث هو العكس، إذ تعزز "الانتماء السياسي القائم على الأصل وصدفة الولادة" على حد قوله. ومن تبعات ذلك برأيه جعل الإثنية القائمة على الأصل أكثر تسييساً إلى حد اعتبارها بمثابة قومية.

الدكتور العظم رأى في طرح فيلاند فرصة لوضع "مشاكلنا في سياق أوسع على مستوى الإدارات السياسية التي ترغب في تحويل العمل السياسي إلى شيء طائفي أو عرقي". وفي هذا السياق، تحدث عما أسماه بـ"الانحلال إلى الولاءات العشائرية التي تنتمي إلى نفس الأصل" كما هو واقع الحال في دول عربية وإفريقية وآسيوية وغيرها. لكن العظم يشير أيضاً إلى محاولات لمواجهة هذه الظاهرة المخيفة عن طريق المناداة بدولة قُطرية علمانية تقر بالديمقراطية وحقوق الإنسان.

"العولمة أدت إلى توليد الصراعات خارج دول المركز"



لكن الدين ليس وحده بقادر على إبراز الفروق وتسييس الأصل وتأجيج الصراعات على مستوى الطوائف والعشائر أو على نطاق أوسع. هناك عامل البحث عن الفرص السياسية كما يدل على ذلك تاريخ البوسنة مثلاً. فتاريخ هذا البلد يروى تحول مجموعة من نبلائه إلى الإسلام عند دخول العثمانيين إليه بهدف ضمان استمرار حصتهم في السيطرة على مقاليد الأمور كما يروي فيلاند. وهناك أيضاً الأرض التي تشكل مكاناً مقدساً للمجموعات العرقية كما هي نظرة الصرب إلى كوسوفو التي يعتبرونها مقدسة بالنسبة إليهم مع أنها خارج صربيا. كذلك يمكن جعل اللغة تلعب دوراً بارزاً في التمييز وتعميق الفوارق، ففي باكستان مثلاً استخدمت اللغة الأوردية كعنصر هام لشحذ همة الحركة الوطنية الباكستانية مع العلم أن الفروق بينها وبين الهندية بسيطة

حسبما ذكر فيلاند.

غير أن الدكتور العظم يعطي أهمية بارزة للعولمة في تسييس الأصل، مشيراً إلى أن "انفلات العولمة من دول المركز واجتياحها لدول الأطراف" بعد الحرب العالمية الثانية ولد ردود فعل انفعالية كان من نتائجها الالتفاف على الذات وتوليد الصراعات ونشوء هويات جديدة. كما أن لانتهاج الحرب الباردة في رأيه دوراً في بروز الانتماء العرقي، حيث أن الدول الفاعلة تبنت هذا المفهوم كونه الأسهل بالنسبة إليها من أجل التعامل مع الدول الأخرى.